

من أدب القرون التاسع

كتاب « سحر العيون » للأستاذ أحمد يوسف نجاتي

كنت منذ حين قرأت حديثاً للأستاذ أحمد بك أمين يمرض فيه « كتاب سحر العيون » عرضاً شائقاً — والكتاب مطبوع قديماً بدون أن يذكر في أوله اسم مؤلفه — ورأيت الأستاذ يقول في هذا المقال القويم : من الأسف أني لم أعر على اسم مؤلفه . ولكنه في ثنايا الكتاب يقول : « أنشدني صاحبنا الشيخ شمس الدين محمد بن أبي بكر القادري (١) المولود سنة ٨٢٤ . فؤلف الكتاب إذاً — من أدباء القرن التاسع الهجري — والظاهر أنه مصري لأنه يروي لنا في ثنايا الكتاب أحداثاً مصرية وأمثالا غامية مصرية »

(١) شمس الدين محمد بن أبي بكر بن عمر بن عمران بن نجيب بن عامر أبو الفضل الأنصاري الأوسي السدي المصري القادري الشاعر المشهور . جزم في نظمه أنه ولد في سنة ٨٢٠ في جهة دشايط ، كان أديباً شاعراً مجيداً . أنشدله البدرى في ص ٢٨٥ ، ٣٠٢ من كتابه ، وتوفي في أوائل القرن العاشر . وسنعرض لترجمته وتقد شعره ومرض كثير منه

الجهول ! اهل ترى العالم النقيب الفاضل حين يدخل خرائب البابليين يعمُر صدره بالإيمان ، وترقع روحه إلى أجواء من السعادة العلوية ، وتملكه الروعة والجلال كهذا الدليل الجاهل الأمل الجواب عندي « لا » !!

لأنى من المؤمنين بأن للجهل نفعاً ، وأن شأنه في هذا شأن كل ما أبدعته الكفُ الصناعات الخائفة الجليلة في هذا الكون الجليل ... وهنا بانت لنا عن بعد دائرة جوازات السفر على الحدود الفلسطينية فأبدلتنا بأفكارنا غيرها ، وتبددت هذه الأخيلة وكان ما كان ...

قال الأستاذ المازني الجليل نسوق سؤالاً عن نفع الجهل ؛ فقد كان حديثنا بحديث من ذلك قبل سنين . فإن رأى - أطال الله بقاءه - وجعلنا من كل سوء فداءً - ألا يبخل بهذه الآراء على قراء (الرسالة) فعل وله منا ومنهم ألف شكر !

لترى شهاب العبيدي

فأسفت لأسف الأستاذ ، وأردت أن أكتب ترجمة طويلة لهذا المؤلف تكشف الحجاب عنه ، وأن أعرض ما أعرفه من مصنفاته عرضاً دقيقاً وأحمله تحليلاً أدبياً مسهباً . ولكن عدت دون ذلك عوادٍ صارفة لا قبيل لي بها ، وحالت دون عوائق شاغلة لم يكن أمر نفسي معها يدي . وطال الأمد على ذلك حتى أنسيت ما كنت قد عزمته عليه ؛ وشغلتنى أعمالى الكثيرة بغيره ، إلى أن سألتني اليوم أحد الطلبة الأدباء عن مؤلف هذا الكتاب ؛ فذكرني بما كنت قد نسيت ؛ ورأيت أن أنتهز هذه الفرصة السانحة فأسفف طلبته بهذه الكلمة الموجزة التي أحررها على مجل . وفي العزم إن شاء الله أن أبسط القول في ترجمة هذا الأديب وترجمة شيوخه وأصحابه ومعاصره الذين تربطهم به صلة وثيقة كان لها أثر بين في أدبه ؛ وأن أطيل الكلام في الأدب المصري والشامى في عصر المهاليك عامة وفي القرن التاسع خاصة . وأرجو أن تقسح لي مجلة « الرسالة » القراء صدرها فهمدى بها مجلة الأدب الرفيع وحلبة ميدانه القى تجول فيه أقلام فرسانه من الكرام الكاتبين

١ - لقد دل مؤلف « سحر العيون » على نفسه في نحو عشرين صفحة من كتابه ، ونادى باسمه (البدرى) فيه كثيراً حتى ينجح صوته . وكأني به في ص ١٨٨ قال : « من عرفنى فقد اكنى ، ومن لم يعرفنى فأنا جامه البدرى عنى عنه ، مولده في عشية الثلاثاء رابع عشر ربيع الأول من شهر سنة سبع وأربعين وثمانائة » وسنعرض بعد لسائر الصفحات التي صرح فيها باسمه ، وتناول شعره فيها وفي غيرها بالتقد والتحليل

٢ - للبدرى مؤلف « سحر العيون » كتاب آخر اسمه : (نزهة الأنام في محاسن الشام) طبع بمصر بالطبعة السلفية سنة ١٣٤١ هـ صدر عنوانه في أول صفحة منه بما يأتي :

« نزهة الأنام في محاسن الشام ، تأليف أبي البقاء عبد الله ابن محمد البدرى المصرى الممشق من علماء القرن التاسع (وولد سنة ٨٤٧) صاحب الديوان المشهور ، وتاريخ « تبصرة أولى الأبصار » و « سحر العيون » اه . وقد دل المؤلف أيضاً على نفسه في هذا الكتاب في كثير من صفحاته ، وموعدهنا بالكلام في هذا الكتاب وسواه قريب إن شاء الله .

الصباح في وصف الوجوه الصَّبَاح « وقرظه له الشعراء فأبلغوا ، وكان من أعيانهم البرهان الباعوثي وأخواه ، والشهاب الحجازي ، والمنصوري ، والقادري ، وابن قرقاس . ووفد إليه ألفه بدمشق سنة ٨٦٥ ، والنس مني قرظه فأجبتة وكتبت له إجازة حسنة ، وامتح قضاة مكة وغيرهم ، وليس نظمه بالطائل ، ولا فهمه بالكامل . وكتبت عنه من نظمه :

إذا ما كان مجموعي لديك من الدنيا بهذا قد قنعت
وما قصدني سوى هذا وحسي بأن في يدك وما جمعت
وكان يتكسب بالتجارة ، وربما جلس بمجانوت بمكة في الموسم .

تتلل بمكة مدة وسافر منها وهو كذلك في أوائل الحرم سنة ٨٩٤ في البحر فوصل إلى الطور ثم غزاة فأدركه أجله هناك في جمادى منها . وبلغنا ذلك في شوال — عفا الله عنه — وترك ولدين أو أكثر وورثته ، وأظن والده في الأحياء . عفا الله عنه ولما « اه

إنتهت ترجمة السخاوي . وهو معروف بأنه قد يتحامل على بعض معاصريه ، ويقذفهم بمبارات تهكم لازعة وقوارص من الكلم تنطوي على سخرية صريحة ، بداعي المنافسة والمصارعة والازدحام على منهل عذب واحد . وقد قال فيه معاصره (ابن إلياس) في كتابه « بدائع الزهور » : « إنه ألف تاريخاً فيه كثير من المساوي في حق الناس » . وأنشأ معاصره (جلال الدين السيوطي) مقامة من ضمن مقاماته سماها « الكاوي في رد تاريخ السخاوي » شنع عليه فيها ... يقول فيها : « ما ترون في رجل ألف تاريخاً جمع فيه أكابر وأعياناً ، ونسب لأكل لحومهم خواناً ، ملاءم بذكر المساوي وتلب الأعراض ، وفوق فيه سهاماً على قدر أعراضه والأعراض هي الأعراض . وجعل لحم المسلمين جملة طعامه وإدامه ، واستغرق في أكلها أوقات فطره وصيامه ... » والمقامة مخطوطة محفوظة بدار الكتب الملكية تحت رقم ١٥١٠ . فينبغي للنصف أن يقف أمام بعض تراجم السخاوي موقفاً محايداً مهروباً

ونحن بعد هذا نشرح ما يحتاج إلى الشرح والتبيان من ترجمة علم الدين السخاوي لأبي بكر البدرى ، ونشفع ذلك بتقدمه ونصل القول إلى ما وعدنا به من ترجمة حياة هذا الأديب ترجمة ضافية و ترجمة أديب عصره وأقرانه وشيوخه وأصحابه ، ونكشف الكنقاب عن الأدب المصري في القرن التاسع بل في عصر المماليك عامة بإذن الله

٣ — وفي فهرس الكتب العربية لدار الكتب الملكية بالجزء الخامس المشتمل على فهرس التاريخ في ص ٣٨٧ ما نصه : « زهة الأنام في عاين الشام ، تأليف أبي البقاء عبد الله ابن محمد البدرى المصرى المسمى من علماء القرن التاسع ، ولد سنة ٨٤٧ (وكتب سنة ٧٤٧ غلطاً) ، وهو صاحب الديوان المشهور والتاريخ السمي : « تبصرة أولى الأبصار في اقراض العمر بين الليل والنهار » ، « سحر العيون » . الخ

وإني أنصح لمن يعنى بالأدب وتاريخه أن يطلع على فهرس دار الكتب ، فإنه يعثر فيها على فوائد جمة ويهتدى إلى مراجع قيمة في اللغة العربية وآدابها وتاريخها . وفي كشف الظنون (زهة الأنام في فضائل عاين الشام) لأبي البقاء عبد الله ابن محمد البدرى المصرى المسمى الشافى

٤ — وأبين مما تقدم ترجمة علم الدين السخاوي في كتابه (الضوء اللامع) لمؤلف « سحر العيون » . ونحن نقل هذه الترجمة بنصها ، ونشقمها بشرحها وقد دعا . قال : « أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن عبد الله تقي الدين بن الجلال المسمى القاهري الشاعر الوفاي ، ويعرف بابن البدرى ، ويكنى أيضاً أبا البقاء ، ولد في شهر ربيع الأول سنة ٨٤٧ بدمشق ونشأ بها ، وتكرر قدمه مع أبيه للقاهرة ثم قطعها مدة ، واشتغل بالبلدين قليلاً . وكتب عن خلق من الشيوخ فن فوقهم . وتمايى الشعر ومدح وبها وطارح . وتردد إلى فأخذ عنى ومدحني فيما كتبت في موضع آخر ، وفيه :

جدلى سريعاً بالحديث إجازة يا كاملاً دم وافر الإعطاء
وانتمى لبني الشحنة وتكسب بالشهادة وبالتمسح . فلما ولي
الأمشاطى عمل فيه أحياناً فلم يقابله عليها ، إلى أن تعرض
لبعد الرزاق لللقب عجيب أمه تزيل القاضى في البروقية ونسبه
لأمر فظليح الله أعلم بصحته ، فبادر لتطلبه فلم يقدر عليه ، فصرح
بمنه من يحمل الشهادة فلم يلبث إلا يسيراً . وماتت له زوجة
فورث منها قدراً طائلاً بعد قرره فلم أطرافه وسافر لمكة فجاور
ثم قطن الشام ، ثم جاور بالمدينة سنة ٨٩٢ وكتب فيها من
تصانيف الشريف للمهدوى وغيره ، ثم جاور التي طليها سنة ٨٩٢
بمكة ، وكان يجتمع على بها ، وكتب من تصانيف مجموعاً ، ولازمى
في التحصيل رواية ودراية . وأوقفنى على مجموع سماه « غرر » (١)

(١) قال في كشف الظنون « غزاة الصَّبَاح في وصف الوجوه الصَّبَاح ، — والاسم محرف هنا — للشيخ تقي الدين أبي بكر البدرى المسمى من المصري . أوله : (أما بعد حمد الله الذي الخ ربه على سبعة عشر باباً) اه

المحاضرة ، قوي البنية . قال القرزى : ولقد قام مقاماً عجز أقرانه عنه ، وتجب أهل زمانه منه ، وذلك أن الطاغية تيمورلنك لما استولى على مدينة حلب ٨٠٣ وتسلم قلمها بالأمان بعد أن استحرّ القتل والأسر في أهلها ، صعد إليها وجلس في إيوانها وطلب القضاة والعلماء للاقائه فامتثلوا أمره . وكان من عادة أنه إذا فتح مدينة يعقد مجلساً لمناظرة علمائه وإعنائهم ، وكأنه يريد أن يريهم أنه على حق في عمله ، ويصبح فظائمه المروعة صبغة شرعية . واتفق هؤلاء العلماء فيما بينهم أن يتولى القاضي ابن الشحنة الإجابة عن الأسئلة التي يوجهها تيمور إليهم فقه بحذقه وحسن تصرفه . وكان للطاغية إمام من جلة المعتزلة هو القاضي عبد الجبار بن عبد الله الخوارزمي الحنفي ولد سنة ٧٧٠ وتوفي سنة ٨٠٥ وكان عالماً قديراً بارعاً متقناً لعلوم الدين واللغة والأدب ، يجيد اللغات العربية والفارسية والتركية ، وكان ذا ثروة طائلة وجاه عظيم ومنزلة رفيعة لدى تيمورلنك حتى انتهت إليه الرئاسة في أصحابه . وكان يصحبه معه في غزواته لمناقشة العلماء ومناظرتهم وليكون حلقة اتصال بالترجة بينه وبينهم . وقد كان القاضي عبد الجبار رحمة للمسلمين ، طالبا أتقدهم من غضب الطاغية وسخطه ، وأطفا عنهم نار ثورته وحدته . وكان ربما يبرم من صحبة تيمورلنك في نفسه ولكن لا يسمه مخالفته مع ما يرجو في ذلك من ثواب فقهه لئلا ينال من هذا الطاغية وكف شره عنهم .

عقد تيمور المجلس وأخذ يوجه إلى العلماء الأسئلة بواسطة إمامه ، وابن الشحنة يجيب عنها بلباقة ، فكان من ضمن هذه الأسئلة أن قال لهم : أي الطائفتين من القتل هو الشهيد ، أمن قتل منكم أم من قتل منا ؟ وقد كان هذا السؤال محرّجاً لولا ضلالة القاضي ابن الشحنة ؛ فقد أجاب قائلاً : لقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك فأجاب : فإيه وقد إليه أعرابي وسأله : يا رسول الله ، إن الرجل ليقاتل حمية ، ويقاتل شجاعة ، ويقاتل ليري مكانه ، فأينا في سبيل الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو الشهيد في سبيل الله ... فراق تيمورلنك هذا الجواب وأحسن إلى ابن الشحنة ، وأعجب بدهائه وحسن تخلصه ولطف احتياله وسرعة بديته ، وجبل يؤانس العلماء ويلاطفهم ، ووعدهم المغو عنهم حتى أفرخ روعهم ؛ وأقبلوا يجيبون على أسئلة تيمور بما عندهم ، وكان آخر ما سألهم عنه أن قال : ما تقولون في علي ومعاوية ويزيد ؟ وما الحكم في قتال

١ - أما بنو الشحنة الذين انتمى إليهم البدرى فهم من أسرة شامية من مدينة حلب كريمة الأصل والحسب ، عريقة في العلم والأدب . وقد تقلدوا كثيراً من الوظائف العلمية والدينية بالشام ومصر من قضاء وإفتاء وخطابة وتدرّس . وكان لبعضهم أثر في الحركات السياسية في ذلك العصر ؛ وخدم الأعلی «محمود» من أصل تركي وهو الملقب بالشحنة لأنه كان شحنة مدينة حلب (وشحنة البلد من فيه الكفاية لضبطها من جهة السلطان) ، فعي وظيفه كأنها وظيفه (الحكمدار) الآن .

ومن أقدم من عرف من بنى الشحنة :

١ - كمال الدين محمد بن محمد بن محمود (الشحنة) بن غازي ابن أيوب ، كان من فضلاء زمانه متقناً لعلوم الدين واللسان ، واشتغل بالتدرّس والقضاء ونشر العلم وإفادته . وتوفي بمدينة حلب في شهر ربيع الأول سنة ٧٧٦ .

٢ - وابنه أبو الوليد محب الدين محمد بن محمد بن محمد بن محمود ولد سنة ٧٤٩ بحلب ونشأ بها في كنف أبيه وارتحل إلى دمشق والقاهرة للأخذ عن علمائها . وارتحل مرة أخرى إلى مصر سنة ٧٧٧ بعد وفاة والده فظهرت بها فضائله فولاه سلطانها قضاء بلده حلب سنة ٧٧٨ فلبث بها حيناً يتقلب بين الولاية والعزل حتى فصله السلطان برقوق سنة ٧٩٣ فعاد إلى القاهرة وأقام بها نحو ثلاث سنين ، ثم توجه إلى بلده وشغل نفسه بالتأليف وإفادة العلم ، ثم ولي قضاءها سنة ٨٠٩ ، وبعد حوادث عاد إلى القاهرة معزولاً عن عمله فولى بها عدة وظائف في التدرّس ، ثم عاد إلى وطنه حلب فتوفي بها في شهر ربيع الآخر سنة ٨١٥ وكان نابغة في علوم اللغة والدين والأدب والتاريخ ، وله مؤلفات مفيدة ذكر منها في كشف الظنون كتاب (أوضح الدلائل والأبحاث فيما يحمل به المطلقة بالثلاث) و (روض المناظر في علم الأوائل والأواخر) انتهى فيه إلى سنة ٨٠٦ ؛ وبيدار الكتب المصرية نسخة منه مخطوطة في مجلد فرغ كاتبها منها آخر شوال سنة ١٢٩٧ هـ نقلها عن النسخة الخطية بخط أبي الحسن علي بن حسن بن علي ابن احمد السروي الأزهرى ، انتهى من كتابتها في شهر شعبان سنة ٨٧٣ وهى منقولة عن نسخة بخط القاضي محب الدين أبي الفضل محمد بن محمد بن محمد بن محمود بن الشحنة ولد المؤلف ، أعما كتابته في شهر رمضان من سنة ٨٢٥ .

وكان عاقلاً ذكياً دمث الأخلاق ، جلي النادرة ، لطيف

في منحى الأضلع وادى النضا . وفوق سفح الحد وادى العقيق
 هنا وقد كان أبو الوليد بن الشحنة محدماً . وعمن مدحه
 الجلال عبد الله بن محمد بن زريق المرى ثم الحلي . ولد سنة ٧٧٥
 بالمرّة ونشأ بها ثم قدم مدينة حلب فاشتغل بها وتوفى سنة ٨٢٧
 وكان فاضلاً أديباً ناضلاً نازلاً محسناً ... قال فيه قصيدة مطلعها :
 لم أدر أن تُطَي الأخطا والهدب أمضى من الهندوانيات والقضب
 ٣ - وأبو الوليد هذا كان يكنى بـابن له اسمه الوليد كان
 آية في الذكاء أديباً ناضلاً نازلاً . توفى شاباً في حياة أبيه حوالي
 سنة ٨٠٤ هـ

٤ - وأخوه فتح الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمود
 ولد سنة ٧٥٣ بحلب ونشأ بها . وأخذ عن أبيه وأخيه وغيرهما .
 وقدم القاهرة غير مرّة . وناب عن أخيه في قضاء الحنفية بحلب
 وكان ذا حشمة ومرودة وعناية بالأدب . وله نظم قليل منه :
 يا سادق رفقوا لرقّة نازح لفظته أيدي البعد عن أوطانه
 والله ما جلم بخاطر عبدكم إلا وقاض الدمع من أجفانه
 (يتبع) أحمد يوسف نجاة

الأستاذ بكلية اللغة العربية

على معاوية ؟ وهل يجوز لمن معاوية وابنه ؟ فأجاب القاضي علم الدين
 التفتصي : محمد بن ناصر الدين محمد بن محمد الممشقي (١) قائلاً : إن علياً
 اجتهد وأصاب فله أجران ، ومعاوية اجتهد وأخطأ فله أجر واحد .
 ففاظ ذلك الجواب تيمورلنك وأهان العلماء وسب أهل حلب ،
 ورمم بأنهم يزيديون يبغضون أهل البيت وشيعتهم ، فتدارك
 ابن الشحنة الأمر بلطفه وقال : إن القاضي علم الدين أجاب بما
 وجده في كتاب لم يعمن في معناه والترض منه . فأعجب ذلك
 الطاغية ، وسكت عنه للنضب . وأجاب القاضي شرف الدين موسى
 ابن محمد بن محمد قاضي حلب المتوفى سنة ٨٠٣ بأن معاوية لا يجوز
 لعنه لأنه صحابي ؛ فثار الطاغية وسب العلماء ، ولولا أن القاضي
 شفع ذلك بقوله : إنه رأى حاشية على بعض الكتب بأنه يجوز لمن
 يزيد ، ولولا أن الطاغية كان قد وعد بالعمو ، ولولا حسن وساطة
 القاضي ابن الشحنة ، للاق العلماء يومئذ من تيمور شراً مستطيراً
 . هذا ، ولابن الشحنة تروى نظم ليس على الطبقة ، بل هو
 كشمس الكثير من أبناء عصره

ومن ذلك قوله :

كنت بمقتض التيش في رفقة متعدل القامة ظلي ظليل
 فاحدوب الظهر وها أضلي تمدد والأعين مني تسيل
 ومنه :

ساقى للدمام دمع اللدام فكل ما في الكأس من وصف اللدامة فيكا
 فصل للدمام ولونها ومذاقها في مقلتيك ووجنتيك وفيكا (٢)
 ومنه :

أسير بالجرحا أسيراً ومن همى لا أعرف كيف الطريق

(١) قال عنه في شذرات الذهب : إنه عنى بطلب العلم في كبره ودلر
 في المروس واشتغل كثيراً ، لكن مع قصور فهم وقلة عقل وعناية بالعلم .
 ولما قضاه دمشق إحدى عشرة سنة في مدة ٢٥ سنة أولها سنة ٧٧٩
 وول قضاء حلب وحملة مراراً ، وكان خفياً ، وأميب في الرقة للكبرى
 بعله ، وأسرت له ابنة ، وتوفى سنة ٨٠٥ هـ .
 (٢) أخذ هذا المثل وقصر فيه من قول ابن حيوس أبي التينان محمد بن
 سلطان بن محمد بن حيوس أحد الشعراء الشاميين المجيدين ، ولد بدمشق
 سنة ٣٩٤ وتوفى سنة ٤٧٣ :

وهذه بيتي التدم بوجه عن كأسه للملاهي وعن إبريقه
 فصل للدمام ولونها ومذاقها في مقلتيك ووجنتيه وورقه
 وكلا الشاميين عن بالجناس واللف والنثر ، ولكن للتعهد فضل سبق
 وإيادة السبك . ويحا ابن الشحنة الأخيران شعوران بمرعاة التغير والترجيح
 بأجاء بعض الأماكن .

اعلان

وزارة الزراعة

تقبل العطاءات بإدارة المخازن
 والمشتريات بالحق لغاية ظهر يوم ٢٩ ابريل
 سنة ١٩٤٢ عن توريد (١) زجاجات
 فارغة (٢) أقراص جريد (٣) سبلة وزيل
 حلم وسماد بلدى لأقسام الوزارة . ويمكن
 الحصول على الشروط والمواصفات من
 الادارة للذكرة يومياً ماعد المطالات
 الرسمية مقابل دفع مبلغ ٣٠ ملياً أجرة
 البريد وذلك عن كل مناقصة ٩٢٠٤